منزلة الشعر من التاريخ

﴿١٧﴾ الطب

الطبُّ من ادلّ البينات على المدنية وقد سبق لنا الاتيان بالشواهد العديدة على سمو مكانة العرب في الهيئة الاجتماعية فكان من المحتم علينا ان نورد شواهد الطب عندهم. قال عنترة العبسي في صفة جس الطبيب العليل

يقول لك الطبيب دواك عندي ... اذا ما جسَّ كفك والذراعا
ولو عرف الطبيب دواء داء ... يردُّ الموت ما قاسى النزاعا

وقال النابغة الذبياني

وقد حال همٌّ دون ذلك شاغل ... مكان الشَّغاف تبتغيهِ الاصابعُ (١)

وقال جرير بن عطية الخطفي من ابيات "غمز الطبيب نغانغ المعذور" (٢) وقال ايضاً "غمز الطبيب مكان عظم النائق" (٣). وذكر المداواة سعيد بن عريض بن عاديا في قولهِ

لباب داويني ولا تقتلي ... قد فضل الشافي على القاتلِ

فمن امراضهم الحمّى وقد ذكروا منها اربعة انواع الصالب والنافض والورد والربع فشاهد الصالب قول الاخنس بن شهاب التغلبي

وقلتُ بها ابكي واشعر سخنة ... كما اعتاد محمومًا بخيبرَ صالبُ (٤)

وقال المتلمس يصف جارية

فلو انَّ محمومًا بخيبر مدنفًا ... تنشَّق ريَّاها لاقلع صالبُهْ

وشاهد النافض قول طهمان بن عمرو

ألا حبذا والله لو تعطانهِ ... ظلالكما يا ايها العلمانِ
وماؤكما العذبُ الذي لو شربتهُ ... وبي نافض الحمّى اذن اشفاني (٥)

وشاهد الورد قول مزرّد اخي الشماخ

---

(١) الشغاف غلاف القلب ويروى داخل دخول الشغاف فيكون الشغاف اسم داء يدخل تحت الشراسيف في البطن

(٢) الغمز الجس او النفس . والنغنغ اللهجة في الحلق عند اللهازم ج نغانغ . والمعذور من اصيب بالمعذور وهو داء في الحلق (٣) النائق مرصل العنق والرأس

(٤) يعني الحمى التي معها سرٌّ شديد وليس معها برد (٥) النافض حمى الرعدة

اذا ذكرت سلمى على النأي عادني ثلاجي فعقاع من الورد مُرِدِم (٦)

وحمى الربع او حمي ربع هي ان يحمّ العليل يوماً ويترك يومين قال اسامة بن حبيب الهذلي

من المربعين ومن آزلٍ اذا جنّهُ الليل كالناحطِ

والآزل من اصيب بشدقٍ . والناحط من صات من الاعياء

ومن امراضهم السلّ قال عروة بن حزام

بيَ السلُّ او داء الهيام اصابني فاياك عني لا يكنّ بك ما بيا

وقال يزيد بن الحكم

وقال النطاسيون انك مشعر سُلالاً الا بل انت من حدِ جوي (٧)

ومن هذا القول نستدل انهم كانوا يستدلون على السل بالنحول . وعرفوا السقي وهو ماء يقع في البطن قال ابن احمر الباهلي

ارانا لا يزال لنا حميم كداء البطن سلاً او صُفارا (٨)

والطاعونَ قال عروة بن حزام

فما لكما من حاويَين رميتما بحمى وطاعون الا لقفانِ

وقالوا بان الامراض العضالة تنشأ عن بعض الامراض الخفيفة الوطأة قال مسلم ابن سعيد الوالبي

وكنت لهم كداء البطن يؤذي وراء صحيحهِ داء عياء

وذهبوا الى ان بعض الامراض لا دواء لها قال قيس بن الخطيم

وبعض خلائق الاقوام داء كداء البطن ليس لهُ دواء

وبعض الداء ملتمس شفاء وداء الحُمّق ليس لهُ شفاء

ولعلّ هذين الشاعرين يريدان بداء البطن داء الزحير

واما المداواة فكانوا تارة يحمون المريض من بعض الاطعمة قال كعب بن سعد الغنوي

تقول سُليمى ما لجسمك شاحباً كأنك يحميك الطعامَ طبيبُ

وذلك لانهم كانوا يقولون بتولد الامراض من الطعام قال شمير بن الحارث الضبي

أمِطْ عنا الطعام فان فيهِ لآكلهِ النقاصة والسقاما

وكانوا في مداواتهم تارة يستخدمون بعض الاعشاب او بعض الثمار قال رؤبة

---

(٦) القعقاع الحمى التي تقعقع الاضراس والثلاجي الشديد والورد قبل هي الحمى وقيل يوم الحمى اذا اخذت صاحبها . ومرادها نوبتاً من الحمى والمردم الدائم

(٧) الجوي من بِهِ الجوى وهو داء القلب (٨) الصفار الماء الاصفر يجتمع في البطن

ان كنتَ من دائك ذا افلاسِ فاستقتِ بثر القسقاسِ (٢)

وقد ذكر النابغة الذبياني مداواة السليم (الملسوع) بقولهِ

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقعُ
يسهِّدُ في ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديهِ قعاقعُ

اي انهُ كانوا يسهدونهُ الى الصباح واضعين في يديهِ الحليَّ ذات القعاقع فيمتنع عنهُ النوم ويحفوهُ الكرى وعملهم هذا نجم عن ذهابهم الى ان السم يدبُّ فيهِ اذا نام بخلاف ما لو كان مسهَّدًا وعلى هذه الحكمة جاء قول ابي تمام الطائي

وليلٍ بتُّ اكلأهُ كأني سليم او سهرتُ على سليمِ

وكانوا يداوون المكلب بالكي قال النابغة الجعدي

وقوم يهينون اعراضهم كويتُهمُ كيَّة المكلبِ

واستعملوا الكي ايضًا لغير المكلب قال يزيد بن الحكم

فما برحتْ نفس عدوٍّ حُشيتَها تذيبك حتى قيل هل انت مكتوي

واستعملوا الذرور للجراح قال عبيد الله بن عتبة بن مسعود

شققتِ القلب ثم ذررتِ فيهِ هواكِ فايم فالتأمَ الفطورُ (١)

واستعملوا للجراح الفتائل ايضًا كما جاء في التهذيب "تردُّ على السابريِّ البارا" والبار الفتيلة . واستعملوا الجبائر للكسر كما اورد ابو تمام في ديوانهِ الحماسة

بني اسدٍ الاَّ تخوا تطأكمُ مناسمُ حتى تحطموا وحوافرُ (٢)
ضممناكمُ من غير فقر اليكمُ كما ضمت الساقَ الكسيرَ الجبائرُ

وكانوا يعالجون المصفور بقطع النائط وهو عرق مستبطن الصلب تحت المتن قال العجاج يصف ثور وحش ضرب الكلب بقرنهِ فخرج منهُ دم كدم المفصود او المصفور

وبجَّ كلَّ عانديٍ نعور قضب الطبيب نائط المصفورِ (٣)

وهذا الشاهد نستأنس بهِ ان العرب عرفوا البزل من باب دلالة البعض على الكل ومن طرق المداواة عندهم ان يستقطروا من دماء الملوك والشرفاء فيستعملوهُ دواءً للكلب

---

(٢) القلس ما خرج من الحلق ملء الفم او دونهُ ولس بقيءٍ والقسقاس بقلة تشبه الكرفس.

(١) جمع فطر وهو الشق (٢) مناسم جمع منسم وهو خف البعير

(٣) بجَّ شق وكل عاند اي كل عرق عاند والعاند الذي لا يُرقأ لهُ دم ونعور ينعر بالدم اي يفور والقضب القطع والمصفور الذي يخرج من بطنهِ الماء الاصفر

وللجنّة (الجنون) وللخبل . قال الكميت الاسدي في مديح آل البيت

احلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفي من الكلب

وقد علق العلاّمة الدسوقي في الجزء الثاني من حاشيته على مختصر التفتازاني على التلخيص كلاماً نوردهُ بحروفهِ وهو " قيل بشرط كون ذلك الدم من اصبع من اصابع رجلهِ اليسرى فتؤخذ منهُ قطرة مع قمرة ونطعم للمعضوض يجد الشفاء باذن الله تعالى . وقيل دم الملوك نافع لذلك الداء مطلقاً اي من اي محل كان ولهذا كانت الحكماء توصي الحجامين بحفظ دم الملوك لاجل مداواتهم هذا الداء بهِ" . وقال المتلمس في مداواة الجنة والخبل (افساد الاعضاء والفالج)

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المجنة والخبلُ

ودعي المشتغل بمداواة الجراح طبيباً كما مرّ معنا في شعر الحجاج وآسياً قال الحطيئة

حتى اذا ما بدا لي غيب انفسكم ولم يكن لجراحي فيكمُ آسي

ولربما كانت دعوة المداوي الجراح بالطبيب تجوزاً والصحيح ان يدعى آسياً وقد ذكر الاثنين معاً الحطيئة في قولهِ

هم الآسون امّ الرأس لمّا تواكلها الأطبّة والإساء

وكانت النساء يتعاطين معالجة الجراح قال قيس بن الخطيم

يهون عليّ ان تردّ جراحها عيونَ الاواسي اذ حمدتُ بلاءها[1]

وقد روى ابو الفرج الاصبهاني في اغانيهِ ان احد الاعراب زار بني اود لتكحلهُ امرأة من رمد اصابهِ فقالت لهُ اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك فاضطجع وتمثل يقول الشاعر

اتخترمي ريب المنون ولم ازرْ طبيب بني اود على النأي زينبا

فضحكت وقالت اتدري بمن قيل هذا البيت قال لا قالت فيّ فانا زينب طبيبة بني اود . وكانت هذه المرأة مشهورة بين العرب باحكام العلاج وطب العيون

وقد ضرب المثل في الطب بابن حذيم قال اوس بن حجر

فهل لكمُ فيها اليّ فانني طبيب بما اعيا النطاسي حذيما[5]

يريد ابن حذيم واما معالجة الحيوان الاعجم فقد ذكر النابغة الذبياني مداواتهُ بالكي قال

لكلفتني ذنب امرئ وتركتهُ كذي العرّ يكوى غيرهُ وهو راتعُ[6]

وبالطلي بالقار قال

(١) الاواسي جمع آسيه (٥) وجاء في نطاسي نطبس قال روّبه وقد اكون مرة نطبسا . طبّا بادواء الصبى قربسا . والقربس الماهر النظار المدقق (٦) العرّ الجرب

فلا تتركني بالوعيد كأنني الى النار مطليّ بهِ القار اجربُ

وبالقطران ايضاً قال القُلاَّخ المنقري " اني انا القطران اشفي ذا الجَرَب " وقال دريد بن الصمة

متبذلاً تبدو محاسنهُ يضع الهناء مواضع النُّقبِ (٧)

وبالفصد قال النابغة الذبياني

شكَّ الفريصة بالمدرى فانفذها طعن المبيطر اذ يشفي من العَضَدِ (٨)

وبالبزل قال مرَّة بن محكان

اقبّ لم ينقُبِ البيطار سرَّتهُ ولم يَدِجهُ ولم يغمز بهِ عصبا

ذكر هذا الشاهد صاحب معجم لسان العرب في مادة نقب واتبعهُ بما يأتي

" وفي حديث ابي بكر رضي الله عنهُ انهُ اشتكى عينهُ فكرهَ ان ينقبها قال ابن الاثير نقب العين هو الذي تسميهِ الاطباء القدح وهو معالجة الماء الاسود الذي يحدث في العين " وفي هذا الكلام دليل على ان العرب كانوا يلمّون بجراحة العيون . ولنرجع الى طب الحيوان فاقول ان الراعي ذكر الجبار في تطبيبهِ قال

وقلتُ لهُ ألصِق بابيس ساقها فان يجبر العرقوبُ لا يرفإ النَّسا (٩)

وكان معالج الحيوان الاعجم يدعى مبيطراً كما مرَّ في شعر النابغة و بيطاراً كما ورد في شعر مرة وكما جاء في شعر حميد الارقط يصف فرساً

ولم يقلب ارضها البيطارُ ولا لجعليهِ بها حَبارُ (١٠)

وكانت بعض ادويتهم لا تخلو من خرافة كما مرَّ معنا في شعر النابغة في معالجة الملسوع وكما جاء في شعر عروة بن الورد العبسي عن مداواة حمّى خيبر قال

وقالوا آحبُ وانهق لا تضيرك خيبر وذلك من دين اليهود ولوعُ

لعمري لئن عشَّرت من خشية الردى نهاق الحمير انني لجزوع

اي ان من اراد السلامة من حمى خيبر عليهِ ان يحبو نظير الحمار وينهق عشر مرات وبما ان الطب عندهم كان لا يخلو من الخرافات والشعوذة كانوا يسمّون الطبيب عرَّافاً قال عروة بن حزام

وقلتُ لعرَّاف اليمامة داوني فانك ان ابرأتني لطبيبُ

وقال ايضاً جعلتُ لعراف اليمامة حكمهُ وعرَّاف نجد ان هما شفياني

---

(٧) الهناء القطران والنقب الجرب (٨) المدرى هنا القرن . والعضد داء في اعضاد الابل فتشقّ

(٩) النسا عرق من الدرك الى الكعب (١٠) الحبار الاثر

فما تركا من حيلة يعرفانها ولا سلوة الاَّ بها ستباني
وقالا شفاك الله والله مانثا بما تشتكي منك الضلوع يدانِ
والعرافة ضرب من الخرافات كما لا يخفى امين ظاهر خير الله

ظاهر العمر

(تابع ما قبلهُ)

ولما اجازت الدولة لابي الذهب الزحف على سورية تجهز لذلك بما استطاع اليهِ سبيلاً من جمع الجند وعقد الالوية وحشد الذخائر والمؤن وخرج من مصر بستين الفاً على قول الامير حيدر فارتجّت لهُ البلاد وهلعت القلوب. اما ظاهر العمر فانهُ بعث الى يافا ابن اخيهِ الشيخ كريم الايوب بجماعةٍ من عسكرهِ سماهم المرادي بالنداوية فاقاموا في قلعتها حتى جاءهم ابو الذهب وحاصر المدينة وضربها بالقنابل ستين يوماً فملكها واسرف في قتل حاميتها ورجالها وكان ظاهر قد لبث في عكاء يزيدها تحصيناً ويزدد خرفيها الاقوات ومهمات الحرب فلما وردهُ نبأُ امتلاك يافا انقبضت نفسهُ وبعث يستحضر الامير يوسف الشهابي وهو يومئذٍ في بيروت فعقد الامير ديواناً من عظماء لبنان واستشارهم في الامر فلم يروا من السداد اسعاف الشيخ ظاهر خشية من بأس ابي الذهب الاَّ ان الامير يوسف تلطّف في الجواب وضمّنهُ رسالةً لابي الذهب استعطافاً لخاطرهِ على الشيخ ظاهر فابى هذا ان يقدمها لابي الذهب لانهُ علم انها تذهب صرخةً في واد

وتابع ابو الذهب زحفهُ حتى صار في ضواحي عكاء فخرج ظاهر منها باولادهِ وعيالهِ وما يملكون وصحبهُ في فرارهِ الى صيداء احمد هاشم القبجي الذي كان قد حمل اليهِ فرمان العفو والولاية واقام عندهُ مكرّماً حتى وقعت هذه الغزوة ولما علم الناس بفرارهِ هلعت قلوبهم وفرَّ الشهابيون من بيروت الى لبنان اما الامير يوسف فارسل الى ابي الذهب كثيراً من الهدايا وكتب اليهِ يستعطف خاطرهُ ويطلب منهُ الامان فاجابهُ الى ذلك

واراد ظاهر الاجتماع بالامير يوسف لعلهُ يتنعمُ على مواثقتهِ فكتب اليهِ بموافاتهِ الى جسر صيداء فخاف الامير غائلة هذا الاجتماع فاباهُ معتذراً

وكان من الشيخ علي بن ظاهر العمر بعد ذهاب ابيهِ الى صيداء وقبل وصول ابي الذهب الى عكاء انهُ قصدها واخذ ما فيها من السلع والبضائع لاسيما ما كان منها في خان الافرنج فاغتاظ ابو الذهب من جراء ذلك وسعى في القبض عليهِ فما نال منهُ اربًا وقال قولتاي ان